مقدمة

لماذا اخترت «البشرى» ؟!

قد يسألني القارىء لماذا اخترت «البشرى» موضوعاً لبحثك ، ولماذا آثرته بعنايتي ولم تؤثر غيره من الكتاب المحدثين ؟ وقد يحور القارىء في سؤاله فيقول : لماذا اخترت الأدب الحديث موضوعاً لبحثك ؟ ولماذا لم تختر الأدب القديم ؟ ولكني أرى الإجابة عن هذين السؤالين يسيرة لا تحتاج إلى مشقة أو عسر . ومن حق القارىء أن يعرف هذه الاجابة ، ومن واجب الباحث أن ينير السبيل أمام القارىء ويعرّفه بمقوّمات البحث العلمي الذي يقبل على قراءته .

ويرجع اختياري للبشرى إلى سنوات بعيدة ، فقد كنت منذ نعومة أظفاري شغوفاً بالأدب ، نزوعاً إلى المعرفة ، عكوفاً على العلم ، وكان أبي رحمه الله يختار لي بعض كتب الأدب لأطالعها ، وكان من بين هذه الكتب كتاب «المرآة» وكتاب «المختار» بجزأيه .

ويشهد الله أني كنت أعجب بكتابة «البشرى» أيما إعجاب ، وكنت ألمس في أسلوبه هذه السخرية العذبة التي كانت تبعث في نفسي كثيراً من الغبطة ، وتبعث في قلبي كثيراً من النشوة ، وتبعث في صدري كثيراً من الانشراح . ويشهد الله أن ابتسامة عريضة كانت ترتسم دائماً

على شفتى عقب قراءتى لوصفه ، لزيور وشكله الخارجى ، وأوضاعه الهندسية ، وقطاعاته ومساقطه الأفقية ، على حد تعبيره ، وكنت أعقد مقارنة بين وصفه هذا ومعلوماتى الأولى فى الهندسة ، كما كانت هذه الابتسامة العريضة ترتسم على شفتى أيضاً عندما كنت أقرأ حديثه عن الدكتور « على إبراهيم » شيخ الجراحين ووصفه لأصابعه (التى تسرق الكحل من العين) على حد تعبيره ، والتى ترشحه أن يكون (نشالا) من الطراز الأول لخفتها .

يشهد الله أنى كنت أعجب أشد الاعجاب بكتابة هذا الرجل ، وأقبل على قراءة كتبه كل الإقبال . وكنت أحفظ كثيراً من تعابيره الجميلة ، وأسلوبه العذب ، وأرجع إليه بين الحين والحين كلما احتجت إلى كتابة موضوع فى الانشاء ، وكلما أردت أن أظهر براعتى فى الكتابة أمام أستاذ الانشاء !!

وتمضى الأيام قدماً ، وإذا بى أقابل فى مرحلة التعليم الثانوى أستاذاً لى يعجب أشد الإعجاب بالشيخ « عبد العزيز البشرى » يدعو الطلبة إلى حفظ بعض المختارات من أدب « البشرى » مثل رثائه « لشوقى » أمير الشعراء وللمرحوم « أحمد عبد الوهاب » .

فكنت من أوائل الطلبة الذين يحفظون مختارات « البشرى » وكنت أجد فى ترديدها لذة مابعدها لذة ، ومتعة مابعدها متعة ، وقد

ظلت هذه اللذة وتلك المتعة تعاودنى فترة طويلة من حياتى ، ولست أشك فى أنها لاتزال تعاودنى كلما حاولت أن أسترجع هذه المختارات فى خاطرى .

فلما وصلت إلى مرحلة التعليم الجامعى كانت كتب «البشرى» من الكتب الأولى التى أعكف على قراءتها . وقد أتيح لى فى هذه المرحلة أن أدرس «البشرى» دراسة وافية ، كما اجتاحتنى رغبة ملحة فى أن أعرف كل صغيرة وكبيرة عن حياته ، فلم تكن سيرته ترد على لسان أحد من أساتذتى حتى أحاول أن أستخلص منه بعض ما يعرفه عنه ، إن لم يكن كله ، وقد زاد الأمر حدة وقوة عندما اتصلت بعد ذلك بنجله الأستاذ «حسين البشرى» عن طريق الإذاعة وتعاونت معه فى كثير من البرامج فكان كثيراً مايحدثنى عن أبيه ، ويروى لى نوادره وطرائفه . ثم عرفت فى هذه الفترة نجله الآخر الأستاذ «عبد الحميد البشرى» الذى لم يدخر وسعاً ، ولم يأل جهداً فى سبيل إشباع رغبتى الملحة فى معرفة الكثير عن الشيخ «البشرى» .

ونمت عاطفتى «للبشرى» مع الأيام شيئاً فشيئاً ، ثم أتيح لها أن تتبلور يوم أن عرض على أستاذى الجليل الأستاذ «عبد الوهاب حمودة» تقديم رسالتى فى أحد الموضوعين أدب «البشرى» أو أدب «الرافعى» .

وكنت أعجب «بالرافعى» كثيراً ولكنى وجدت «الرافعى» عنيفاً فى خصومته ، عنيفاً فى نقده ، ووجدت نقاده لا يقلون عنه عنفاً ،

ولا شدة . ووجدت إبداء رأيي في هذه الخصومة قد يثير بعض الفتن بين أشخاص أحياء ، وأدباء يعيشون بيننا ، فآثرت السلامة . . . وأخترت «البشري» لأنه كان محبوباً من الجميع ، ولأن أدبه لم يكن مثار جدل ونقاش شديد كالرافعي ، ولأن الروح المصرية (الفتحة) إن صح هذا التعبير ، تتمثل فيه أصدق تمثيل أكثر من غيره .

ولكني ، مع هذا كله ، لست أطمئن ، ولا أحب أن أطمئن ، ولن أهدأ ، ولست أحب أن أهدأ ، دون أن أكتب عن « الرافعي » في وقت ما ، وأرجو أن يكون ذلك قريباً . . .

ولقد حفزهمتي على البحث أن هذا الموضوع في الأدب المصري الحديث . فنحن في حاجة ماسة إلى أن نهتم بدراسة الأدب المصري الحديث ، ونعتني بعرضه ونقده ، ونحاول أن نأخذ بناصره . وينبغي أن يكون لنا طابع خاص بين ، لا أن نكون عالة على غيرنا من الأمم . ولقد ظللنا فترة طويلة من حياتنا ، ولا نزال ، مصباً لكثير من الثقافات الأجنبية ، والحضارات الغربية ، وأصبحنا ولا نزال أبواقاً لها ، ندعو لها حيثما كنا ، وأينما وجدنا ، حتى نسينا أو أنسينا شخصياتنا وحتى أوشكنا أن نكون (كقطعة الصلصال) تشكلنا الظروف كيفما شاءت ، دون أن نستطيع أن نحافظ على كياننا ومقوّمات شخصياتنا .

إن مصر ، كانت ولا تزال ، كعبة تتلقى فيها الثقافات الشرقية والغربية

فنتج عن ذلك وجود فريقين من الأدباء ، فريق المتعصبين للأدب العربي في تفكيره وأسلوبه ، وفريق الذين ينقلون الثقافة الغربية محاولين بها إلحاقنا بأوربا .

أما الأدباء المصريون سداة ولحمة ، الذين نجد في أعمالهم الأفكار المصرية العميقة ، والإحساس المصري الصميم ، ونلمس في كتاباتهم الصور المصرية الصادقة لما يختلج في نفوسنا من عواطف ، وما يعتمل في صدورنا من مشاعر ، فإننا نفتقدهم فلا نكاد نجدهم .

وكان « البشري » أحد هؤلاء الأدباء المصريين القلائل الذين تتمثل في كتاباتهم الروح المصرية الصحيحة . وتتجلى في نقداتهم البيئة المصرية الصميمة . وتتبدى في أساليبهم الصور القومية الصادقة التي نفتقر إليها في الأدب المصري الفصيح ، وإن كنا لا نحرم منها في أدبنا الشعبي الدارج . كما أن « البشري » كان يمتاز بروح السخرية والفكاهة ، وهذه سمة بارزة امتاز بها المصري على مر الأيام وتعاقب السنين . فهو بطبعه فكه المجالس ، يميل إلى التنكيت والتبكيت .

ويرجع الباحثون هذه الظاهرة إلى عوامل عديدة ، أهمها العامل السياسي (١) ، فقد ظلت مصر فترة طويلة من الزمن تحت سيطرة المحتلين ، فولّد ذلك في النفوس حب السخرية والتهكم ، ومحاولة التفريج عن الهموم بالنادرة الظريفة ، أو الملحة الرقيقة ، أو النكتة العذبة .

وكان بعض الحكام على النقيض من ذلك ، ينبسطون في الحياة ،

---

(١) مقدمة الحركة الفكرية ، للدكتور عبد اللطيف حمزة .

ويساعدون على إباحة السرور والتمتع، ونشر أعلام الحبور والاغداق على العامة بالأموال، ويكثرون من إقامة الأفراح والاحتفالات، كما حدث فى عهد «إسماعيل» الذى أضفى على الشيخ «الليثى» و«عبده الحمولى» عطفه، فانتشر فى النفوس روح المرح والميل إلى التهكم(١).

مهما يكن من شىء، فقد كان «البشرى» يمثل الشخصية المصرية النزاعة إلى التهكم والفكاهة، الميالة إلى السخرية والمرح. ولا غرو إذن أن نهتم بدراسته، وأن نسعى فى سبيل إحياء تراثه الأدبى، وننفض عنه غبار السنين التى لا تزيد على العشر، ولكنه غبار كثيف لم يحاول أن يزيحه أحد من الباحثين. ولولا أن الله قيض له بعض الأصدقاء الأوفياء كالدكتور «طه حسين» لما ظفرنا بكتابه «عطوف» بعد موته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى.

ولقد اهتمت كلية الآداب فى السنوات الأخيرة بدراسة الأدب الحديث، فخصصت كرسياً لهذا الغرض أطلقت عليه (كرسى شوقى) فأحسنت صنعاً بهذا العمل. وليس هذا البحث إلا إحدى ثمار تلميذ صاحب هذا الكرسى العظيم.. !!

---

(١) الدكتور أحمد ضيف، المقتطف سنة ١٩٢٦ ص ٤٠٢

منهج البحث

قد يسألني القارىء — بعد ذلك — ما منهجك في هذا البحث ؟ . ومن حق القارىء أن يسألني هذا السؤال ، ومن واجبي أن أعرض عليه الإجابة ، وهي إجابة سهلة يسيرة لا تحتاج إلى مشقة أو عسر كذلك ، فقد سلكت في هذا البحث منهجين ، لا منهجاً واحداً . ولم ألجأ إلى هذين المنهجين إلا عندما شعرت أن منهجاً واحداً لا يمكن أن يوصلني إلى النتيجة المنشودة ، ولا يمكن أن يميط اللثام عن حقيقة « البشري » وأدب « البشري » إماطة يمكن أن أرضاها وترضاها أنت كذلك . . . لا لشيء إلا لأنها ستكون ناقصة مبتورة ، لا تشفي غلة ، ولا تبل صدى . . . !

أما المنهج الأول فهو المنهج التاريخي . . . . فقد أخذت أتعقب سيرة « البشري » من أصولها ، وأدرس بيته أباً عن جد ، وأجمع ما قيل أو كتب عن أسرته ، وأرجع إلى ملفاته الخاصة ، تارة في وزارة المالية ، وتارة في مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، وتارة في ديوان المحاسبة . وليس من شك في أنك لست في حاجة إلى أن تعرف مقدار الصعوبة التي يكابدها الإنسان في سبيل الاطلاع على « ملف » من « الملفات » فلا بد من أن يكتب الطالب طلباً ، ولا بد أن يحدد الغرض من

الاطلاع على هذا الملف ، ولا بد من أن يتقدم هذا الطلب إلى رئيس مسئول ، ولا بد من أن يحوّل هذا المسئول ذلك الطلب إلى من هو أكثر مسئولية منه ، ولا بد لهذا الأخير من أن يضع الطلب على مكتبه يومين أو ثلاثة حتى يبت فيه ، أو يرفعه إلى الوزير ، أو يرد الطالب في أدب بحجة أن الاطلاع على الملفات سر من أسرار الدولة !!

وهكذا صادفت في سبيل الاطلاع على ملفات «البشري» صعوبة أي صعوبة ، ومشقة أي مشقة ، حتى استطعت أخيراً أن أطلع عليها وأستخرج منها بعض الوثائق التاريخية التي يمكن أن تفيدني في بحثي العلمي ، أو تلقي أضواء على شخصية أديبنا «البشري» . ولولا أن الدكتور «منصور فهمي» والأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» قد مهدا لي في المجمع اللغوي السبيل للاطلاع على ملف «البشري» بالمجمع لصادفت تلك الصعوبة التي صادفتها في وزارة المالية وديوان المحاسبة الذي تحفظ فيه جميع الملفات القديمة قبل ترحيلها إلى دار المحفوظات بالقلعة .

ولقد ساعدتني هذه الملفات ، كما قلت ، على اتباع المنهج التاريخي في البحث ، إلى جانب ما جمعته من أقوال نقاده ومعاصريه الذين تناولوا حياته وأدبه بالبحث والتعليق . ومكنني هذا المنهج التاريخي من تعيين مكان عمله الأدبي في خط سير الأدب الطويل ، وتتبع تاريخ البيئة الثقافية والسياسية والاجتماعية لمعرفة مدى تأثر «البشري» بها أو أثره فيها .

ولكن هذا المنهج التاريخي لا يمكن أن يوفي دائماً بغرض الباحث

فى الأدب . فموضوع التاريخ هو الماضى ، ماض لم تبق منه إلا آثارات أو أنقاض بواسطتها يعاد بعثه . أما موضوع الأدب فهو الماضى أيضاً فى هذه الحال ، ولكنه ماض باق . فالأدب من الماضى ومن الحاضر معاً (١) .

والمؤرخ عندما يتناول وثيقة يحاول أن يقدر العناصر الشخصية فيها لينحيها . ولكن هذه العناصر الشخصية هى التى تحمل القوة العاطفية والفنية فى المؤلف الأدبى . وإذن فمن الواجب أن نحتفظ بها . وفى كل مرحلة من المراحل لابد لنا أن نتذوق النصوص التى جمعناها ، وأن نحلل خصائصها الشعورية والتعبيرية . ومن ثم كانت (الذاتية) فى تقدير العمل الأدبى هى أساس الموضوعية فيه ، ومن العبث محاولة تجريد الناقد من ذوقه الخاص ، وميوله النفسية ، واستجاباته الذاتية لهذا العمل .

والنظرة التاريخية تضع العنصر الشخصى فى موضعه ، وتجرد الناقد من أهوائه . ومن هنا كان المنهج التاريخى لا يستطيع أن يقف وحده على قدميه فى هذا المضمار ، فالخصائص الحسية والفنية التى تميز المؤلفات الأدبية هى (وقائعنا الخاصة) ونحن لا نستطيع دراستها دون أن تحرك مشاعرنا وتؤثر فى أحاسيسنا وأذواقنا .

أضف إلى ذلك أن المنهج التاريخى يعمد إلى معرفة الفروق بين الوقائع والتماس المفارقات بين الأحداث . وعلى هذا النحو نكون

---

(١) منهج البحث فى الأدب واللغة ، لانسون تعريب الدكتور محمد مندور ص ٢٠

نحن أمعن فى التاريخ من المؤرخين أنفسهم لو سلكنا هذا المسلك فى أبحاثنا الأدبية . فالفروق التى يلتمسها المؤرخ بين الوقائع العامة نصرف نحن فنلتمسها بين الأفراد . والتاريخ كما يقول « لانسون » لا يعنى بالأفراد إلا فى الحدود التى يمثل فيها هؤلاء الأفراد جماعات أو يغيرون اتجاهات (١) .

ونحن إذا ما أردنا أن ندرس « البشرى » أو غير « البشرى » معتمدين على المنهج التاريخى ، فلابد من تتبع تأثير الكاتب فى الحياة الأدبية والاجتماعية . ومن ثم تأتى دراسة الوقائع العامة ، وفنون الأدب ، وتيارات الأفكار ، وحالات الذوق والاحساس . . . وهذه كلها لا يمكن أن يحصرها المنهج التاريخى فلابد إذن من الاعتماد على منهج آخر يكمل هذا المنهج ، ألا وهو المنهج الموضوعى أو (العملى) على حد تعبير « لانسون » .

وعماد هذا المنهج الرجوع إلى النصوص ومعرفة تأثرنا الذاتى بها ، وهو تأثر منبعث من الذوق وتجاربنا الشعورية .. والفنية السابقة ، ثم النظرة الموضوعية إلى القيم الشعورية .. والقيم التعبيرية لهذا العمل .

والتأثر التلقائى ، والتحليل ، المتروى وسائل مشروعة ولازمة ، ولكنها غير كافية ، فلابد لنا لتحقيق هذا المنهج الأخير من استخدام وسائل أخرى ، كمعرفة بعض علوم أو فنون أخرى ، مثل الموسيقى والغناء الذى تحدث عنه « البشرى » .

---

(١) منهج البحث فى الأدب واللغة ص ٢٣

ثم لابد أن نوجه لأنفسنا هذه الأسئلة التى اعتبرها «لانسون» عماد المنهج العملى وهى : هل نسبة النص صحيحة؟ وهل النص خال من النقص أو التغيير أو التشويه ؟ وما تاريخ تأليفه؟ وما تاريخ نشره ؟ وكيف تغير من الطبعة الأولى إلى الطبعة الأخيرة ؟ وكيف تكوّن النص منذ أول تسويدة إلى الطبعة الأولى؟ وعلام تدل التسويدات؟ وما قيمة النص اللغوية والأدبية ؟ وما أثر ذلك النص فى البيئة الأدبية ؟ . .

ولقد رجعت فى هذا البحث إلى كتب «البشرى» المطبوعة ، ولم أستطع الوصول إلى مسوداته ، لأنه كان — كما يقول فى صدر المختار — يمزق أو يحرق أصول مقالاته . وهذه الخصلة حالت دون عقد مقارنة بين المخطوط والمطبوع ، ولكنى استطعت أن أطلع على خطابات كتبها بخط يده إلى ابنه «حسين» وهو فى لندن ، وأكثر هذه الخطابات تدور حول مسائل خاصة ، ولكنها تصوّر روحه المرحة ، وميله للسخرية والتهكم أصدق تصوير ، فقد طلب «حسين» من أبيه ذات مرة أن يرسل إليه نقوداً فأجابه والده بقوله : «إنه سيرسل له النقود المطلوبة ولن يسأله عن أوجه صرفها . . ولو قدر لحسين أن يعود من انجلترا وهو ماش!!!» . .

ولقد حاولت دائماً أن أرجع إلى النص فى مظانه الأولى ، تارة فى الهلال ، وتارة فى الأهرام ، وتارة فى الكشكول وتارة فى السياسة وتارة فى الرسالة أو الثقافة . وأتيح لى أن أكون حبيس مكتبة القلعة على رضى منى فترة طويلة من الزمن يشهد الله أنها كانت من أجمل فترات حياتى . .

وتلمست أثر هذا النص فى النفوس وما جرت به الأقلام فى نقده ، حتى إذا تم لى ذلك نظرت إلى نوع هذا النص ، أو هذا الأثر الأدبى ، وإلى قيمه الشعورية ، وإلى قيمه التعبيرية ، ومدى ما تنطبق عليه الأحوال الفنية لهذا الفن من الأدب .

ولم أغفل الناحية النفسية فى منهج البحث وحاولت أن أعرف دلالة العمل الأدبى على نفسية صاحبه ، وحللت (موضوعية) النكتة عند « البشرى » تحليلا نفسياً دقيقاً ، وهو تحليل يعتمد على الأسس النفسية التى شرحها (الدكتور جون ويزدم) فى مقاله بمجلة علم النفس .

فهذا البحث إذن لا ينساق وراء المنهج التاريخى انسياقا أعمى ، ولا ينقاد للمنهج الموضوعى أو العملى انقياداً لا رجعة فيه ، إنما يجمع بين محاسن هذين المنهجين ويطرح مثاليهما دون أن يغفل الناحية النفسية فى الموضوع .

تمهيد

البيئة العامة التي عاش فيها «البشرى»

يقولون إن الإنسان ابن بيئته . ولست أشك في أن هذا القول صحيح كل الصحة ، مصيب كل الصواب . وهذه البيئة قد تكون طبيعية ، وقد تكون معنوية ، ولسنا الآن في معرض الحديث عن البيئة الطبيعية التي نشأ فيها « البشرى » كموقع بلاده وتضاريسها ومناخها ، وما إلى ذلك ، إنما نكتفى بعرض ملامح البيئة المعنوية أو العامة التي نشأ فيها «البشرى» ونعنى بها البيئة السياسية ، والبيئة الاجتماعية ، والبيئة الثقافية . . .

البيئة السياسية :

نشأ «البشرى» في أعقاب الثورة العرابية ؛ وتفتحت عيناه على الاحتلال الانجليزى ، وأتيح له أن يشهد وهو صبى ذلك الصراع الوطنى المستمر في سبيل الاستقلال ؛ وظل يرقبه وهو يدرج من طور الشباب إلى طور الرجولة ، حتى اندلعت الثورة المصرية عام ١٩١٩ وبدأ كفاح «سعد زغلول» في سبيل الوصول إلى الأمانى الوطنية والأهداف القومية . فخاض «البشرى» كغيره هذه المحن السياسية التي ألمت بمصر ، وكان موقفه منها فيه كثير من التحفظ والاحتراس إلى أن توفاه الله عام ١٩٤٣

ويظهر أن الشيخ «البشرى» كان يميل كل الميل فى مطالع حياته إلى الشيخ «على يوسف» ومذهبه السياسى. وآية هذا ما أخذه على الشيخ «على يوسف» من مدح وإطراء وتبجيل.. اسمعه يقول:

«كان بعد رجلا شديد العقل، قوى النفس، حديد العزم، وافر الشجاعة، لا تعاظمه قوة خصم بالغة ما بلغت قوة ذلك الخصم وبأسه».

وتأمل رأيه فيه كسياسى كبير، فإنى لا أعرف رجلا سياسياً عظيما كان أقل الناس أنصاراً وأكثرهم خصوماً، كما كان الشيخ «على يوسف» وخصومه على كثرتهم. لقد كانوا من جميع الطبقات. وكانوا من جميع الهيئات، وإنهم ليحيطون به إحاطة الطوق من كل جانب وكلهم عامل على إسقاطه. جاهد ما امتد به الجهد فى هدم «المؤيد» فدك عليه الأقلام والألسن من كل حياته يدفعه بتهمة الخيانة الوطنية فما دونها فى غير هوادة ولا إشفاق؛ ثم إذا الشيخ يتجمع وإذا هو يشرع القلم شرع الرمح الردينى، وإذا هو يطعن الطعنة البكر هاهنا مرة وهاهنا مرة، فلا يصيب إلا الكلى والمفاصل، وإذا هؤلاء الخصوم يتطايرون عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض، وإذا «المؤيد» يرن فى البلد رنينه بعد ما تردد تأوهه وطال أنينه.

وكان الشيخ «على يوسف» من زعماء الحزب الوطنى قبل إعلانه ولكنه لم يلبث أن اختلف بعض الاختلاف مع الزعيم «مصطفى كامل» ورماه بالتطرف وألف مع بعض أصحابه الحزب الوطنى

المعتدل . وقد حدث هذا الانقسام عام ١٩٠٦ عند إعلان مبادىء الحزب الوطنى حتى كتب مراسل التيمس فى مصر بتاريخ ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٠٦ كلمة عن الأحزاب السياسية جاء فيها ما يلى :

«إن الحزب الصحافية التى دارت رحاها بين ما يدعى أحزاب الوطنيين لا تزال قائمة بحدة وشدة ، أما الحزب الوطنى الرسمى الذى تألف سنة ١٩٠٦ فقد انقسم قسمين : حزب المتطرفين برياسة «مصطفى كامل» ، وحزب المعتدلين برياسة «على يوسف» ..

ونشرت جريدة المؤيد القانون الأساسى لحزب «الإصلاح على المبادىء الدستورية» وهو حزب الشيخ «على يوسف» وكان «أحمد حشمت باشا» و«حسن رفقى باشا» وكيلين للحزب و«أحمد حافظ عوض افندى» مديراً للأعمال و«محمد مسعود أفندى» سكرتيراً و«يوسف بك صديق» أميناً للصندوق .

ولم نقرأ اسم الشيخ «البشرى» بين أعضاء هذا الحزب ولكن يظهر كما قلت أنه كان يقدره كل التقـــدير لما أضفى على الشيخ «على يوسف» ومذهبه السياسى من آيات التكريم والإجلال .

وقد أنشىء حزب الشيخ «على يوسف» كما جاء فى «المؤيد» فى العدد ٥٣٥١ بتاريخ ١٩٠٧/١٢/٢٦ للغرضين الآتيين :

الأول : تكوين رأى عام من المصريين مبنى على المبادىء المذكورة وهى المبادىء التى قبلها شعاراً له فى الوطنية .

الثانى : السعى فى تنفيذها وبذل الجهد فى أن تكون الأعمال فى إدارة البلاد منطبقة عليها أو منسوجة على منوالها .

أما هذه المبادىء المذكورة فهى :

١ — تأييد السلطة الخديوية فيما منحتها الفرمانات الشاهانية لاستقلال مصر الإدارى .

٢ — الاعتماد على الوعود والتصريحات التى أعلنتها بريطانيا العظمى عند احتلالها القطر المصرى ومطالبتها بتحقيق هذه الوعود .

٣ — المطالبة بمجلس نيابى مصرى يكون تام السلطة فيما يتعلق بالمصريين والمصالح المصرية .

٤ — أن يكون التعليم الإبتدائى عاماً ومجاناً .

٥ — أن تكون اللغة العربية لغة التعليم فى جميع المدارس المصرية .

٦ — أن تعطى الوظائف فى المصالح المصرية للوطنيين بمقتضى الكفاءة والاستحقاق مع تقليل عدد الأجانب بقدر الامكان حتى يتأتى للمصريين أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم فيما بعد .

٧ — أن تكون محاكمة الأجانب جنائيا أمام المحاكم المختلطة . وذلك إلى أن يتم توحيد المحاكم المصرية بجميع سكانها تحقيقا لأعظم مبدأ فى إقامة العدل بين سكان البلد الواحد وهو المساواة أمام القانون .

على أننا لا يمكن أن نعتبر «البشرى» من مؤسسى الحزب الوطنى أو حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية ، وإن أظهر ميلا إلى الحزب الأخير، وهو حزب الشيخ «على يوسف» كما أن المعاصرين لهذه الفترة يقولون إن الشيخ «البشرى» كان من الأصدقاء الملازمين للشيخ «على يوسف» وكان الجميع يجلسون فى (بار اللواء) حيث يتبادلون الآراء السياسية تارة ، ويتندرون بالنوادر الأدبية والطرائف تارة أخرى. وقد قص لى أحد (الجارسونات) الأحياء فى بار اللواء القديم أن الشيخ «البشرى» كان يحرص كل ليلة على قضاء سهرته فى بار اللواء مع أقطاب الحزب الوطنى ومن بينهم الشيخ الكبير « على يوسف » .

وينتقل « مصطفى كامل » إلى رحمة الله فى ١٠ فبراير عام ١٩٠٨ وينتقل الشيخ «على يوسف» إلى رحمة الله فى ٢٥ أكتوبر عام ١٩١٣ ثم يشتعل أوار الحرب العظمى فى أغسطس عام ١٩١٤ وتقاسى فيها شعوب العالم ألواناً شتى من العذاب . فمن تدمير وتقتيل فى ميادين القتال فى البر والبحر، إلى ضنك سياسى واقتصادى شديد بسبب حصار الموانى وتهديد الغواصات للسفن التجارية، إلى ضرب المدن وسكانها بالقنابل بواسطة الطائرات حتى تعلن الهدنة بين المتحاربين فى ١١ نوفمبر عام ١٩١٨ وتنتهى بصلح فرساى عام ١٩١٩

ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى كان « كتشنر » فى انجلترا فاختير وزيراً للحربية ولم يعد إلى مصر ، وكان الخديوى «عباس» فى الآستانة ويقوم «حسين رشدى باشا» رئيس الوزارة مقامه. ولم يلبث أن ظهر ميل الخديوى عباس إلى الأتراك حلفاء ألمانيا عندما أعلنت

مصر الحرب على ألمانيا وحلفائها فأعلنت انجلترا على أثر ذلك حمايتها على مصر فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ وكممت الأفواه وقصفت الأقلام وقيدت حرية الصحافة .

وفى ٨ أكتوبر عام ١٩١٧ مات السلطان حسين ثم اختير (الأمير أحمد فؤاد) ابن الخديو إسماعيل ليكون سلطانا على مصر ، ثم ارتقى العرش فى ٩ أكتوبر ١٩١٧ ولم تلبث الهدنة أن أعلنت بين المتحاربين فى الحرب العظمى فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ مؤذنة بانتصار الحلفاء ، وكان المصريون قد كابدوا أثناء هذه الحرب صنوفاً شتى من الشقاء والبؤس والسخرة والعوز ، وتسلط الموظفين الإنجليز عليهم واستئثارهم بمعظم الوظائف الكبرى ، مما مهد لظهور حركة الجهاد الوطنى فذهب فى يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ ثلاثة من الزعماء الوطنيين وهم « سعد زغلول » و « على شعراوى » و « عبد العزيز فهمى » لمواجهة معتمد انجلترا (سير ريجنالد ونجت Sir Reginald Wingate) بالمطالب الوطنية والسماح لهم بالسفر إلى لندن لعرض قضية استقلال البلاد ، وكذلك طلب « رشدى باشا » رئيس الوزارة وزميله « عدلى يكن باشا » وزير المعارف السفر لمفاوضة الحكومة الانجليزية فى مصير مصر .

ثم عمل الوطنيون على تأليف (الوفد المصرى) برياسة « سعد زغلول » ، وأخذوا من الشعب توكيلا له للمطالبة باستقلال البلاد . وفى ٩ مارس ١٩١٩ أرادت السلطة الإنجليزية أن تشل هذه الحركة

الفتية الناهضة فألقت القبض على أربعة من كبار الزعماء وهم « سعد زغلول، واسماعيل صدقى ، ومحمد محمود ، وحمد الباسل » ونقلتهم إلى جزيرة مالطة، وكانت الحكومة الإنجليزية قد عينت لجنة برياسة لوردملنر (Milner) للبحث فى الأسباب التى أدت إلى ثورة المصريين ولاقتراح الدستور الذى يلائم حالة البلاد تحت نظام الحماية . ولكن اللجنة عندما حضرت إلى مصر قاطعها المصريون، وفى هذا يقول الشيخ «البشرى» :

« وهبط ملنر مصر والوفد قائم فى باريس ودارت اللجنة ها هنا وها هنا لعل أحداً يعاطيها أو يقاولها ، فاستمسك الناس كلهم عنها ولم يواتها منهم أحد، فعادت فى النهاية وبالثلاثة أعلام، رشدى وعدلى وثروت ، فصارحوها بأنها إن أرادت الجد فلا تفاوض فى شأن مصر غير الوفد، فلتمض إلى باريس فهناك الحديث ، أما فى مصر فلن تجد — مهما طال المقام — ثلاث قطط تحدثها فى شأن البلاد (١) ....) !!! ...

ولكن الخلاف فى شأن رياسة المفاوضات مع الحكومة الانجليزية لم يلبث أن دب بين « سعد زغلول» وأصحابه الذين أطلق سراحهم فى أبريل ١٩١٩ وقصدوا إلى باريس للدفاع عن قضيتهم فى المؤتمر الدولى المنعقد فى هذه الفترة، وبين «عدلى يكن» واستحكم

---

(١) المرآة ص ١٧

الخلاف بين الطرفين عندما تولى «عدلى يكن» الوزارة فى عام ١٩٢١ وتمسك بحقه فى رياسة المفاوضات، ولكن مفاوضات عدلى من لورد كرزون (Curzon) لم تثمر شيئا فاستقال عدلى من الوزارة.

وإن المتتبع لما كتبه «البشرى» عن «سعد زغلول وعدلى يكن» يلاحظ أنه يرى «سعداً» زعيم الأغلبية الشعبية تحفه القلوب من كل جانب فهو ملء السمع، ملء القلب، ملء البصر[1]. وكيف لا يرتفع على مذهب حجة الناس وقد رفعه الله على الناس[2]. أما «سعد» الوزير (الناظر) فلقد كان الأسد حق الأسد، وإن شئت تعبيراً أشد وأقوى: قلت كان الرجل كل الرجل[3] ويرى «عدلى يكن» تنقصه الزعامة الشعبية الحقة فهو مابرح (ابن ذوات) قليل الاتصال بالناس، شديد التحفظ بنفسه عنهم لا يزورهم ولا يستزيرهم ولا يستريح إلى مجالستهم[4].

كما أن المتتبع لما كتبه «البشرى» فى المرآة يلاحظ أنه قد جرى بقلمه فى الحديث عن «إسماعيل صدقى ومحمد محمود» وقد نفيا مع «سعد» إلى جزيرة مالطه.

غير أن هذه الظواهر كلها لا تؤكد لنا انضمام «البشرى» إلى حزب

---

(١) المرآة ص ١
(٢) المرآة ص ٤
(٣) قطوف ج ١ ص ٧١
(٤) المرآة ص ١٩

الوفد المصرى أو إلى اعتناق مبادئه، إنما كان رجلا متحفظا فى حياته تجره الصداقات أولا وقبل كل شىء إلى الحديث عن الزعماء السياسيين دون استثناء . . . !

وقد ظلت الحالة السياسية فى مصر مضطربة إلى أن تفاوض لورد اللنبى (Allenby) وعبد الخالق ثروت باشا، واستقر رأيهما على حل قبله اللنبى الذى سافر إلى انجلترا ثم عاد إلى مصر. وفى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ أعلن أن الحماية على مصر قد رفعت واحتفظت انجلترا بالنقط الأربع الآتية :

١ — تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر .
٢ — الدفاع عن مصر ضد أى تدخل أو هجوم أجنبى .
٣ — حماية الأقليات ومصالح الأجانب .
٤ — السودان .

وعلى هذا الأساس تألفت «وزارة ثروت باشا» وتألفت لجنة الثلاثين من كبار رجال القانون برياسة «حسين رشدى باشا» لوضع الدستور، وأعلنا الملك «فؤاد الأول» استقلال البلاد وتحويل السلطنة إلى مملكة فى ١٥ مارس عام ١٩٢٢ .

وكلف الملك «أحمد فؤاد» اللجنة الثلاثينية بوضع دستور الأمة الجديد، وأمر بإنشاء دار جديدة للبرلمان بجانب قاعة الجمعية التشريعية القديمة : ووضع حجر أساس البرلمان الجديد فى ٢٤ أغسطس ١٩٢٢

بحضور « عبد الحميد سليمان باشا » وكيل وزارة الأشغال وتبادلت مصر مع سائر الدول الممثلين السياسيين .

وفى الساعة العاشرة ليلا من يوم ١٩ أبريل ١٩٢٣ أعلن الدستور مصر فى ، ولما زفت جريدة الأهرام إلى الأمة هذه البشرى سألت الله أن يجعل الدستور (فاتحة خير وإسعاد للأمة وبنيها ..) .

وذللت لجنة الدستور جميع الصعوبات التى اعترضت طريقها إلا أنها اصطدمت بالصخرة السودانية وبعناد السلطات البريطانية ، وكان الدستور فرصة ذهبية لإعلان اتحاد مصر والسودان رسمياً واعتباره جزءاً لا يتجزأ من الأراضى المصرية ..

وقد صوّر البشرى فى كتاباته هذه الفترة من تاريخ مصر فقال :

« وسرعان ما آذنت انجلترا الدول بانتهاء حمايتها على مصر ، وسرعان ما آذنها الملك باستقلال البلاد وشرع « ثروت باشا » يسنّ للدولة دستوراً قوياً لأن مصر الفتاة تأنف العيش إلا فى كنف برلمان . وهذا البرلمان يعمل وسيعمل إن شاء الله حتى تحيا مصر أعلى الحياة (١) .. »

وقد اشترك « البشرى » فى لجنة وضع الدستور ، وكان عليه أن يهتم بالصياغة الأدبية للأساليب القانونية . والواقع أن اللجنة التى وضعت الدستور عام ١٩٢٣ لم تكن تمثل الشعب ، إنما كانت لجنة شكلتها

---

(١) المرآة : ص ٣٥ للأستاذ عبد العزيز البشرى .

الحكومة بعد أن رفضت الأحزاب المساهمة فى هذا العمل وإن كانت هذه اللجنة مكونة من ٣٠ عضواً ممن يفهمون المسائل القانونية والفقهية، وكان فيها بعض رجال الدين والسياسة ورؤساء العشائر، وبعض المصريين ممن اشتهروا بين قومهم (١)

وقد ظل هذا الدستور الذى اشترك «البشرى» فى وضع صيغته الأدبية قائما فقامت الانتخابات على أساسه عام ١٩٢٣ وأوقف العمل به بعد حياة برلمانية مقلقة سنة ١٩٢٨، وأعيد وألغى عام ١٩٣٠ وحل محله دستور رجعى عرف باسم دستور «صدقى» سنة ١٩٣١، ثم ألغى هذا فى وزارة «نسيم باشا» الأخيرة بفضل تضحيات الأمة وكفاحها وعاد الدستور الأول وقامت الإنتخابات فى ظله عام ١٩٣٦

وفى الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة من صباح يوم ١٠ ديسمبر عام ١٩٥٢ أعلنت الثـــورة سقوط دستور عام ١٩٢٣ ونادت بدستور التحرير ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وفى ليلة ١٢ يناير عام ١٩٥٣ أذيع مرسوم بقانون بوضع دستور جديد للدولة يتفق وأهداف الثورة الوطنية الأخـــيرة، ويحقق ما تنشده البلاد من حياة سليمة مستقرة، وألفت لجنة لوضع مشروع الدستور من خمسين عضوا.

---

(١) السياسة ونظم الحكم، للدكتور أحمد سويلم العمرى، ص ٣٤٣

وعندما تمزق الوفد المصرى وخرج من زمرته «عدلى يكن» و«محمد محمود» و«المكباتى» تألف حزب جديد عام ١٩٢٠ بزعامة «عدلى يكن» يسمى حزب (الأحرار الدستوريين) وتتلخص سياسة هذا الحزب فى السعى إلى استقلال البلاد عن طريق المفاوضات كذلك ، إلا أن الحزب — خلافا لما ذهب إليه الوفد — لم ير مانعاً من تحقيق استقلال البلاد بخطوات متتابعة، وبناء على هذا صدر فعلا تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى استنكره الوفد المصرى لأنه لايحقق استقلال البلاد المنشود (١) .

كان «عبد العزيز البشرى» من أعز أصدقاء «محمد محمود باشا» رئيس حزب الأحرار الدستوريين عقب «عدلى يكن باشا» ، وكان كثيراً مايقضى سهراته معه فى صحبة زعماء حزب الأحرار ونشر كثيراً من الفصول فى (السياسة) لسان حال حزب الأحرار . ومع أن مقالاته كانت تدور فى أغلبها حول الحياة الاجتماعية إلا أنها كانت تظفر بقبول حسن عند الأحرار الدستوريين وغيرهم من الأحزاب السياسية ومختلف طبقات الشعب .

صوّر «البشرى» محمد محمود زعيم الأحرار فى مرآته ... فقال «تاريخ كبير فى سن صغيرة ، وشأن جليل فى جسم ضئيل ، ولعل «محمد باشا محمود» لم يذرف بعد على الخامسة والأربعين

---

(١) الدكتور السيد صبرى جريدة الاهرام ١٩٥٢/٦/٢

ولكنك حين تقلب الذهن فيه يسرح منه إلى مدى عريض . وحسبك أن ترى أرنبة أنفه وهو يشدها إذ يتحدث إليك أو ترفعها له الطبيعة لتدرك أنه رجل لا يريد إلا أن يكون عظيما أو الصحيح لم يخلق إلا لعظيم (١) .

وهكذا كان « البشرى » صديق الأحزاب جميعاً . وإن كنا نجد ميلا له فى أواخر أيامه إلى الأحرار الدستوريين . ولكن مهما يكن من شىء فاننا لا نستطيع أن نعتبره حراً دستورياً ، كما لا نستطيع أن نعتبره وفدياً ولا سعدياً ، إنما كان متحفظاً فى مذهبه السياسى ، لا يذود عن حزب ضد حزب آخر ، ولا ينصر مبدأ سياسياً على مبدأ آخر ، ولا يهاجم زعيما سياسياً ويمدح زعيما آخر على النحو الذى نعرفه فى الكتابة السياسية والمقالة النزالية فى الصحف والمجلات ، وحاول « البشرى » أن يتقرب من القصر ، شأنه فى ذلك شأن كثير من الكتاب والصحفيين فى ذلك العصر فنراه يكتب عن الزفاف الملكى ، والأعياد الملكية ، والزينات الأنيقة ، والثريات البراقة ، والسيوف المشرعة ، والجياد المطهمة ، وما إلى ذلك من أمور تحيط بجلال الملك وروعة التاج ؛ غير أن البشرى فى هذه المقالات أو الخطرات منشىء وليس بكاتب ، وتظهر فى أسلوبه الصنعة اللفظية والطريقة الجاحظية فى التنميق والتزويق .

---

(١) المرآة ص ١٧٧

ظل «البشرى» هكذا طيلة حياته يميل إلى الهدوء السياسي والبعد عن العواصف السياسية، غير أنه كان وطنياً بأدق معاني هذه الكلمة، وكان يقف أمام (دنلوب) في نظارة المعارف مدافعاً عن العربية محاولاً رفع رايتها في الخافقين.

ولم يتناول «البشرى» الزعماء السياسيين بالنقد والتحليل في أخريات حياته كما تناولهم من قبل، ووجدناه يتجه اتجاهاً آخر في الأدب ويحاول أن ينشىء لنا أدباً قومياً يصور حياتنا المصرية وأحياءنا الشعبية أصدق تصوير إلى أن اختاره الله لجواره عام ١٩٤٣

البيئة الاجتماعية:

شهد العصر الذي عاش فيه «البشرى» صراعاً خطيراً بين القديم والحديث وبين التقاليد الشرقية والتقاليد الغربية، فقد كان احتلال الإنجليز لمصر ليس احتلالاً سياسياً أو عسكرياً فحسب، بل كان احتلالاً اجتماعيا كذلك، فظهرت في الحياة الاجتماعية كثير من التقاليد الأوربية التي لم يألفها الشرقي ولم يتعودها من قبل، غير أنها صادفت عند بعض الناس قبولاً حسناً، بينما صادفت عند الآخرين إنكاراً شديداً.

وكان لفيف من الكتاب يدافعون عن الحضارة الشرقية

والتقاليد العتيقة ، بينما انبرى لهم لفيف آخر يدافعون عن الغرب وحضارته ، ويرمون الفريق الأول بالخمول والجمود .

ويعد « البشرى » من أوائل الكتاب الذين صوروا الحضارة الشرقية والتقاليد الاجتماعية أصدق تصوير ، غير أنه لم يكن متزمتاً أو جامداً إنما كان يجارى الحضارة الغربية بمقدار .

ولو أنك قرأت كتب « البشرى » وتمعنت فى القراءة لاستطعت أن تحصل على صورة صادقة من الحياة الاجتماعية فى عصره . فهو يصور لنا نظام الخطبة والزواج ، وهو يصف لنا ليالى رمضان ، وهو يعطينا صورة واضحة عن الفن والموسيقى والغناء فى عصره ، وهو يعرض لنا ما يجرى فى الأفراح وعلى المآدب وفى الدعوات ، وهو يبين لنا ما كان يلبسه النساء من أزياء ، وما يضعن فوق وجوههن من ألوان وأصباغ ، وما يرتديه الفلاح من خرق وأسمال ، وما تكابده الطفولة المشردة من يأس وبؤس . وما يعانيه العامل من عنت وإرهاق ، وما يلجأ إليه المتسولون من أساليب حديثة فى الاستجداء .

لو أنك قرأت كتب « البشرى » وتمعنت فى القراءة لاستطعت أن تخرج منها بصورة صادقة عن الحياة الاجتماعية قلما تجدها عند كاتب آخر ، وقلما تجد واقعيتها وصدقها عند أديب آخر ، على النحو الذى سنفصله عند الحديث عن : « البشرى » الأديب العصرى .

والواقع أن الحياة الاجتماعية فى عصر « البشرى » كانت ممتعة إلى

أبعد حدود الإمتاع، مشرية بالكتابة إلى أبعد حدود الإغراء، فالأفراح مثلا كانت منتشرة فى القاهرة وأنحاء القطر بسبب الرخاء ورغد العيش قبل الحرب العالمية الأولى، وكان القوم يتلمسون المناسبات لإقامة الأفراح التى يحييها كبار المطربين، وكان الدخول إليها مباحا لمحبى السماع، وبخاصة المقربين من المطرب، وكان شارع الموسكى الشارع الرئيسى الشعبى، يموج بمختلف الناس فى أزياء شتى (١) وقليلا ما كان يعلن عن حفلات الزواج فى الصحف، اللهم إلا حفلات الأثرياء والأعيان، أما بقية الأفراح فكان مصدر الاعلان عنها (باعة اللب) و (المطيباتية) الذين كان لديهم أخبار السهرات ومن بها من المطربين، وقلما كانت تخلو ليلة من مطرب أو مطربين مما أشاع البهجة والأنس فى أنحاء العاصمة. ولا تزال مصر تذكر أفراح الأنجال التى أقيمت بها فى سنة ١٨٧٣ فقد استمرت أربعين يوما، عشرة منها لكل عرس. وكان يحى الأفراح الكبرى عبده الحمولى، وألمز، وترقص فيها أشهر الراقصات مثل: صفية، وعائشة الطويلة وغيرهما(٢) ..

وكانت ليالى رمضان من أروع ليالى السنة وأجملها حيث القوم يتندرون ويتسامرون ويستمعون إلى أشجى الألحان وأعذب الأنغام وأبدع التراتيم فى مدح الرسول.

وشهدت مصر فى عصر «البشرى» مطلع حركة فنية مباركة

---

(١) Au Pays du Christ Par Paul Lau fer P. 20

(٢) الأهرام ٧٥ سنة من تاريخ مصر ص ٧٥.

وأخذت (الأجواق) السورية ترد على مصر فرقة إثر فرقة وكانت فرقة سليم نقاش أول فرقة صرح لهـــا بالدخول إلى مصر فى شهر ديسمبر عام ١٨٧٦ وكانت مكونة من ١٢ ممثلا و٤ ممثلات ، وترأس يوسف خياط هذه الفرقة بعد انسحاب سليم النقاش وأديب اسحاق ، وحضر إلى الاسكندرية فى ٢٣ يونيو عام ١٨٨٤ جوق كبير من الممثلين للروايات العربية ويدير أعماله الشيخ أبو خليل قبانى الكاتب المشهور ، وظهر فى الأفق الفنى عبده الحمولى والشيخ سلامة حجازى ، وكان عبده الحمولى من أساطين الفن فى هذه الفترة وقد نصح اسكندر فرح والشيخ القبانى بالذهاب إلى مصر عندما قابلهما فى دمشق صيفاً وكانت له مدرسة شرقية ممتازة فى الموسيقى والغناء ، أما الشيخ سلامة حجازى فقد بدأ عمله فى فرقة اسكندر فرح للتمثيل ، غير أنه لم يلبث ان انفصل عنه وكوّن فرقة مستقلة وجوقاً تام المعدات من رخامة الأصوات وحسن الالقاء وبراعة التمثيل (١) ..

وضم الشيخ سلامة حجازى إليه فنانا آخر هو الشيخ عبد الله عكاشة الذى كان مساعداً له فى الإلقاء والتلحين . وكوّن الأستاذ جورج أبيض فرقته الأولى للتمثيل عام ١٩١٢ وانضم إليها بعض الشبان أمثال عبد الرحمن رشدى وفؤاد سليم وحسن ، ثابت وبزغ نجم السيدة منيرة المهدية فى الربع الأول من القرن العشرين ، وظهرت

---

(١) الأهرام ٥ مارس ١٨٨٨ .

فى عالم الطرب عام ١٩٢٢ تنشد القصائد النبوية . ولم تلبث أمام الاعجاب بفنها وعذوبة صوتها أن نهجت طريقاً جديداً فى الأداء والتخت والتزود من الموسيقى الشرقيـــة على أساتذة الفن المعاصرين أمثال المرحومين محمد العقاد والشيخ أبو العلا .

ولمع نجم الشيخ سيد درويش بعد الكراوين الصداحة أمثال عبده الحمولى وسلامة حجازى ومحمد عثمان فاستطاع بألحانه أن يعبر عن النفس المصرية الخالصة وجرى بالغناء نحو الواقعية وصوّر خلجات القلوب وخبايا الصدور . . .

وظهرت مسرحيات غنائيـــة أخرى كتبها محمد تيمور مثل العشرة الطيبة . وعبد الستار أو الهاوية، ومسرحيات لابراهيم رمزى مثل الأخشيد ودخول الحمام، وصرخة الطفل . ومسرحيات لعباس علام مثل الشريط الأحمر ، وشقاء العائلات . ومسرحيات لحسين رمزى مثل الضحايا، وطريد الأسرة (١) .

وتكونت بعد ذلك فرقة عبد الرحمن رشدى ويوسف وهبى ونجيب الريحانى وغيرها من الفرق ، وتألق نجم محمد عبد الوهاب وأم كلثوم فى سماء الغناء والطرب .

ولقد أعطانا «البشرى» صورة صادقة معبرة عن بعض أعلام

---

(١) المسرحية فى شعر شوقى للأستاذ محمود حامد شوكت ص ٢٦

الموسيقى والغناء ، وعن تقاليد الفن المتبعة فى هذا العصر ، فانتزع منا العجب والاعجاب ، كتراجمه عن سلامة حجازى وسيد درويش ومحمد العقاد وغيرهم .

وشهد العصر الذى عاش فيه «البشرى» قضية المرأة تصعد على مسرح الحياة الاجتماعية . فكتب « البشرى » عن هدى شعراوى وأيدها فى حركتها الناهضة وتمنى لها النجاح والتوفيق ، غير أنه تهكم فى كثير من المناسبات على النساء اللاتى أسرفن فى تبرجهن وخرجن عن حد اللياقة والاحتشام .

وتعتبر الأميرة نازلى فاضل أول سيدة فى مصر فتحت صالونها لاستقبال ساسة مصر وأدبائها ، وتعد من واضعى دعائم النهضة النسائية فى مصر ، وقد أوحت إلى قاسم أمين بتأليف كتاب (تحرير المرأة) الذى كان حدثاً مدوياً فى تاريخ الإصلاح ، وشغل الصحافة فترة طويلة من الزمن بين التأييد والمعارضة ، وانبرى له بعض الكتاب نقداً وتفنيداً مثل محمد طلعت حرب فى كتابه (تربية المرأة والحجاب) والسيد عبدالله جمال الدين قاضى قضاة مصر عام ١٩٠٠ فى كتابه (الحجاب) وعبد المجيد خيرى فى كتابه (الرد المبين على قاسم أمين) .

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل « كان ظهور كتاب تحرير المرأة حادثاً ، بل حادثاً خطيراً اضطربت له آراء الهيئات الدينية واضطرب له كثير من المتعلمين أنفسهم ، وأبدى الخديو عباس سخطه على الكتاب

ومؤلفه، حتى لقد أمر بأن لا يدخل قاسم أمين قصر عابدين مع ما كان له من رفعة المركز في القضاء، ثم نشر قاسم أمين بعد ذلك رداً على خصومه في كتاب (المرأة الجديدة)[1] فكان كتابه الثاني قنبلة أخرى في الحياة الاجتماعية، ودفع الناس مرة أخرى إلى التفكير، وكان أكثرهم يرى أن في الكتابين شراً وجاء على الدين وتمهيداً للإلحاد، بينما كان بعضهم يرى أنهما حق وأنهما الوسيلة الوحيدة لخلق شعب يدرك الحياة إدراكاً صحيحاً.

وقد ظلت المرأة تكافح وتجاهد حتى تكوّن الاتحاد النسائي عام ١٩٢٣ وتزعمت الاتحاد بمالها وجاهها ونشاطها المغفور لها السيدة هدى هانم شعراوي التي لم تألُ جهداً في سبيل الدفاع عن قضية المرأة، فحاضرت ونشرت في الصحف، وأسست بناء خالداً ومستشفى ومدرسة لتعليم الفتيات الحياكة والتطريز.

وكان للاتحاد النسائي حظ وافر وشرف كبير بأن قدم للجمهور أولى الخريجات المصريات في الطب والمحاماة والآداب والطيران والحاصلات على دبلومات من مختلف الكليات، ومما تحقق من برنامج الاتحاد تقرير السادسة عشرة سناً أدنى لزواج البنت، ليتسنى لها تكوين عقلها، وتحصيل قسط مناسب من الثقـــافة والتعليم قبل مباشرتها الحياة الزوجية والاضطلاع بواجب الأمومة، وخوض معركة الحياة الاجتماعية. وكذلك وفق إلى بعض نظام الأحوال

---

(١) مذكرات هيكل السياسية ص ٢٤.

الشخصية فيما يتعلق بنظام الخطبة والزواج لتهيئة الجو الصالح للأسرة واستقرار الحياة الزوجية ووضع حد لفوضى الطلاق حفظاً لكيان الأسرة ومنعاً من إنهيارها .

وفق الاتحاد النسائى إذن إلى معالجة كثير من الأدواء الاجتماعية التى سخر منها « البشرى » ودعا إلى معالجتها وقد سجل « البشرى » فى حديثه مع هدى شعراوى رائدة النهضة النسائية ومؤسسة الاتحاد النسائى إعجابه بدعوتها ووصفها بقول الشاعر[1]:

ولو كان النساء كما رأينا لفضلت النساء على الرجال

وقد ظهرت فى المجتمع المصرى فى عهد « البشرى » نزعة قوية ألا وهى المشاركة الوجدانية للبائس والفقير والمحروم ، والغيرة على الطبقات البائسة[2] والطفولة المشردة والعامل الأجير والفلاح المكدود ، وقد برزت هذه النزعة بشكل ملموس عقب الحرب العالمية الأولى لما سببته للشعوب من أزمات اقتصادية شديدة ، ولذلك وجدنا شوقى فى شعره كما وجدنا حافظ إبراهيم يصوران هذه النزعة أصدق تصوير ، ويعد « البشرى » من أروع الكتاب الناثرين فى هذا المضمار .

فالبشرى يكتب عن الطفولة المشردة والفلاحين والعمال وغير ذلك من طبقات الشعب على النحو الذى فعله حافظ فى شعره ، فقد

---

(١) المرآة ص ١٣١ .

(٢) الاتجاهات الأدبية فى الأدب العربى الحديث ، للأستاذ أنيس الخورى المقدسى ص ٢٣ .

دعا محافظ إلى الاحسان والرأفة بالأيتام ، والعطف على جمعية إعانة العميان ، وما إلى ذلك من المشروعات الاجتماعية الكثيرة .

تأمل ما يقوله فى رعاية الأطفال الحيارى :

شبحاً أرى أم ذاك طيف خيال ... لا بل فتاة بالعراء حيالى
أمست بمدرجة الخطوب فما لها ... راع هناك وما لها من والى
حسرى تكاد تميد فحمة ليلها ... ناراً بأنات ذكين طوال

ثم تأمل ما كتبه « البشرى » فى الطفولة المشردة :

« ناحلو الأجسام ، بادو العظام ، حتى كأنما شدت الجلود عليها شداً فلم تفسح بينها لغير العروق مسلكا ، وهذه وجوه مغبرة كأنها بعثرت لتوها من جدث ، وهذه عيون حيارى لا تكاد تقع على شىء حتى تتحول مسرعة خشية أن يعتريها المكروه من الناحية الأخرى فهى فى فزع دائم وروع مقيم ... هى أشباح تغدو وتروح كأنها أضغاث حلم ثقيل ..... وكثيراً ما تسمع منها سعالا ينبئك عما يمزق الرئة ويتطلع منها إلى الضلوع (١) » .

وتمثلت هذه النزعة الاجتماعية فى الأدب الحديث عند شوقى كذلك ولكنه كان يجاريها مجاراة لأنه ربيب النعمة والرخاء ، غير أنه التقى مع « البشرى » فى ناحية أخرى وهى تناوله بالشعر بعض أعلام الأدب والفن مثل محمد المويلحى وعبده الحمولى وسلامة حجازى . . فشوقى يقول فى محمد المويلحى :

---

(١) تطوف ج ١ ص ١١٩ .

كاتب يحسن البيان صناعة استخف العقول حينا يراعه
إبن مصر وإنما كل أرض تنطق الضاد مهده ورباعه

☆ ☆ ☆

سيد المنشئين حث المطايا ومضى فى غبـــاره أتباعه
حطوم (بالإمام) للموت ركب يتلاقى بطاؤه وسراعه

وشوقى يقول فى عبده الحمولى :

ساجع الشرق طار عن أوكاره وتولى فن على آثاره
غاله نافذ الجناحين ماض لاتفر النسور من أظفاره

☆ ☆ ☆

فجع الناس يوم مات الحمولى بدواء الهموم فى عطاره
بأبى الفن وابنه وأخيه القوى المكين فى أسراره

وشوقى يقول فى سلامة حجازى :

ياثرى النيل فى نواحيك طير كان دنيا وكان فرحة جيل
لم يزل ينزل الخمائل حتى حل فى ربوة على سلسبيل

☆ ☆ ☆

أين صوت كأنه زنبق الخلد على فرعه السرى الأسيل
أين فى مسمع الزمان أغـــان عليهن روعة التمثيـــل
أين صوت كأنه رنة البلبل فى الناعم الوريف الظليل

وشوقى يقول فى سعد زغلول :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها وانحنى الشرق عليها فبكاها

ليتنى فى الركب لما أفلت (يوشع) همت فنادى فتناها

* * *

يارفاتا مثل ريحان الضحى كللت (عدن) بها هام رباها
وبقايا هيكل من كرم وحياة أترع الأرض حياها

وقد تناول «البشرى» فى مرآته ومختاره هذه الشخصيات بأسلوبه العذب الطريف فأبدع كل الإبداع .

وإذا كان «البشرى» قد اتفق مع شوقى فى هذه الناحية ، ناحية تناول الشخصيات البارزة فى ذلك العصر ، فكذلك اتفق مع حافظ فى هذا إلى جانب النزعة الاجتماعية التى برزت فى أدب حافظ بروزا يستلفت الأنظار لما اكتنف حياته من صنوف البؤس والحرمان على النحو الذى ذكرناه آنفاً .

يقول حافظ فى محمد محمود ... الذى تناول «البشرى» شخصيته فى المرآة — عندما نال درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة أكسفورد :

شرف الرآسة يامحمد زانه شرف النهى
يردان من نسج الجلا ل إليهما الفخر انتهى
زانتك ألقاب الرجال العاملين وزنتها

ويقول حافظ فى المغفور له الدكتور على ابراهيم الجراح الشهير عندما أجرى عملية لمحمد محمود «باشا» :

أيا يداً قد خصها ربها بآية الإعجاز فى الخلق
ومشرطاً جمع من رحمة وصيغ من يمن ومن رفق
نجيتنا من مرض قاتل مطلع آمال بنى الشرق
لولاكما لاندك صرح العلا وانحسر البدر عن الأفق

ويقول حافظ فى محمد المويلحى عند تأليفه كتاب عيسى بن هشام :

قلم إذا ركب الأنامل أو جرى سجدت له الأقلام وهى جوارى
يختال ما بين السطور كضيغم يختال بين عوامل وشعار

* * *

يا بن الذى غنى اليراع بكفه فصبت إليه مسامع الأقدار
لك فى دمى حق أردت وفاءه يوم الوفاء فقصرت أشعارى

وكل هذه الشخصيات تناولها «البشرى» فى كتبه، ولسنا الآن فى معرض المقارنة بين البشرى وحافظ وشوقى، أو بين أسلوب كل منهم لما بين النثر والشعر من فروق معروفة فى الأدب، إنما يكفى أن نقول إن البشرى تناول هذه الشخصيات بطريقة خاصة ساخرة لاذعة (كاريكاتورية) إن صح هذا التعبير، بينما تناول كل من شوقى وحافظ هذه الشخصيات تناولا يختلف كل الاختلاف عن «البشرى» وإن اتحد الطرفان فى الموضوع .

وهذه الظاهرة إن دلت على شىء فإنما تدل على أن أدب «البشرى» كان صورة لعصره ، وصورة للمجتمع الذى يعيش فيه ، ولم تكن

تفوته الفرصة فى الحديث عن الرجال البارزين وأعلام الأدب والفن فى هذا العصر الذين أدوا للمجتمع أجل الخدمات فى مختلف الميادين.

البيئة الثقافية :

إذا أردنا أن نتحدث عن البيئة الثقافية التى عاش فيها «عبد العزيز البشرى» فلا بد لنا من أن نعطى القارىء صورة عن هذه البيئة فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين .

وكان التعليم الدينى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر يكاد يكون التعليم الأول لشباب ذلك العصر ويقوم عليه الأزهر الشريف وما يتصل به من المعاهد المنبثة فى القاهرة والأقاليم.

وهذا التعليم على حد تعبير الدكتور طه حسين :

«رسمى تشرف عليه الدولة لأنها تنفق عليه من الخزانة ومن أوقاف المسلمين، ولأنها تنظمه بما تصدر من اللوائح والقوانين. ولكنه كان إلى عهد قريب منحازاً عن الحياة العامة قد انصرف إلى نفسه وانصرفت الدولة عنه ، ومضى فى طريقه لا يكاد يخضع لمراقبة أو ملاحظة، وكانت صبغته الدينية ومازالت تحميه إلى حد بعيد من تدخل السلطان المدنى، وكان إقبال الناس عليه ومازال عظيما، وهو بحكم طبيعته

وبيئته ومحافظة القائمين عليه وخضوعهم بحكم هذه المحافظة الكثير من أثقال القرون الوسطى وكثير من أوضاعهـــا يصوغ التلاميذ والطلاب صبغة خاصة مخالفة للصبغة التى ينتهجها التعليم المدنى بحيث يعرض الأمر من الأمور أو الوقعة من الوقعات فإذا الأزهرى يتصوره على نحو، وإذا الشاب المدنى يتصوره على نحو آخر، وإذا هذا وذاك لا يتفقان فى التفكير والتقدير ولا يتفقان فى الحكم والرأى ولا يتفقان فى السيرة والعمل (١) .. » !

سلك «البشرى» هذا اللون من التعليم غير أنه كان يختلف عن تلك الحال التى صورها الدكتور طه حسين فى كتابه، فلم يكن يرضى بالتقاليد البالية، والأوضاع السقيمة التى فرضها التعليم الدينى على طلابه فرضاً، فالتمس الأدب حيثما وجد وأينما كان، واتصل بأعلامه وقادته، وعكف على كتب الأدب ينهل منها ما شاء له الله من علم ومعرفة.

ولم يسلك «البشرى» سبيل التعليم المدنى الذى أخذ ينتشر شيئاً فشيئاً منذ مستهل القرن العشرين وكان عدد المدارس الأميرية فى عام ١٨٩٢ (١٧) مدرسة، منها سبع مدارس عالية وخصوصية مثل المهندسخانة والحقوق ودار العلوم، ثم الفنون والصنائع، وكان بها جميعاً ٣٥٩ طالباً، وتغذيها ثلاث مدارس ثانوية، هى الخديوية

---

(١) مستقبل الثقافة فى مصر لطه حسين ج ٢ ص ٧٦ .

والتوفيقية ورأس التين، وكان عدد التلاميذ بجميع مدارس التعليم الابتدائى التابعة للنظارة ١٥٠ تلميذا .

وكان ناظر المعارف فى عام ١٨٩٢ محمد زكى باشا ، ووكيلها يعقوب أرتين باشا، وكان يمثل سياسة الاحتلال شاب اسكتلندى يدعى (دجلس دانلوب) عين مفتشاً فى النظارة ثم رقى بعد ذلك سكرتيراً عاماً لها ثم مستشارا .

ورغم أن « البشرى » لم يسلك هذا التعليم المدنى فإننا نراه يرثى لحاله عندما تمكن منه دانلوب كل التمكن فيقول :

« أما لغة العلم فلقد دهاها من السياسة ما دهى، فإن (دانلوب) ما كاد يقبض على زمام التعليم فى المعارف وينفرد بالسلطان حتى جعل يحيل لغة العلوم إلى الانجليزية ، وتم له ذلك فى المدارس الثانوية . ولو قد تهيأ له أن يدرس الطلاب قواعد العربية نفسها بالانجليزية أيضاً لما أعوزه الإقدام . . . ! ! ! »[1]

وقد كانت لدانلوب سياسة خرقاء فى التعليم ترمى إلى إقصاء اللغة الفرنسية من التعليم وإحلال اللغة الانجليزية محلها ، ثم إلغاء اللغة العربية كلغة للتدريس فى التعليم الثانوى والابتدائى حتى أصبحت مجرد لغة تدرس لذاتها ، ثم إلغاء نظام المجانية فى التعليم تدريجيا ،

---

(١) الهلال ص ٦٤٤ عام ١٩٣٧ .

ولكن هذا الوضع لم يتح له أن يستمر أو يعيش أمام الوعى القومى فلما تولى سعد زغلول نظارة المعارف تقدم من فوره بدراسة العلوم بكل ما يتسع له الذرع بالعربية، وخلفه على نظارة المعارف أحمد حشمت باشا وحذا حذوه فى حياطة اللغة العربية وحضانتها. وكان من توسعه أن أنشأ فى نظارة المعارف قلماً للترجمة فى شتى العلوم والفنون وعقد رئاسته له.

وارتفعت ميزانية الدولة فى التعليم عام ١٩٠٧ إلى ٣٧٤ ألف جنيه بعدما كانت فى عام ١٩٠٥ (٢١٤) ألف جنيه، فلما تولى عدلى يكن وزارة المعارف عام ١٩١٤ كانت ميزانية التعليم ٥٥١ ألف وأخذت ميزانية التعليم تضطرد فى النمو شيئاً فشيئاً إلى أن تولى وزارة المعارف فى مارس عام ١٩٢٥ على ماهر باشا، فبلغت الميزانية مليونين و ٩١ ألفا من الجنيهات نظراً لتوسعه فى فتح المدارس وإيفاد البعثات العلمية إلى أوربا ومنحه المجانية للمتفوقين.

وشهد «البشرى» افتتاح الجامعة المصرية ولم يتح له أن ينتظم فى سلكها، ولكنه مع ذلك اختلط بأساتذتها وطلابها القدامى، مثل لطفى السيد وطه حسين وزكى مبارك وتأثر باتجاهاتهم فى التفكير وجنوحهم إلى الارتواء من معين الثقافة الأوربية، وحاول أن يقلدهم فى ذلك ما استطاع إلى ذلك سبيلا حتى بدا أثر الثقافة الفرنسية فى أسلوبه فى بعض الأحيان.

وليس من شك فى أن الجامعة المصرية أو جامعة فؤاد الأول

كما سميت بذلك فى ١١ مارس سنة ١٩٢٥ ، قامت بدور خطير فى نشر الثقافة فى القرن العشرين ، فإنه لما اشتدت قوة الحركة الوطنية فى أوائل هذا القرن شعر أفراد من خاصة المصريين بنقص نظم التعليم فى جميع طبقاته ووددوا لو نشأت فى مصر حركة قوية تدعو إلى التعليم الأولى وإصلاح التعليم الثانوى والعالى ، وشعروا بأن حاجة الأمة إلى علماء راسخين فى العلم ، ليست بأقل من حاجتها فى الأزمان السابقة إلى متعلمين عاملين ، وأنه قد حان الوقت لتخريج شبيبة تأخذ بيد الأمة فتحلها المقام الذى يجب أن يكون لها بين الأمم الراقية . وكذلك شعروا بمجىء اليوم الذى تقضى فيه الضرورة على الشبيبة المصرية بورود مناهل التربية العلمية المحضة فى نفس القاهرة دون أن تغترب فى ربوع العلم التى نالت بفضله مكانة عالية فى العمران . وكذلك شعروا بالحاجة إلى التمتع بثمرات العلم الحر الخالص من كل قيد ، فنشأت فكرة الجامعة المصرية من ذلك الشعور ، وسرعان ما اكتتب الناس بالأموال واشتركوا فى تأسيس هذا المعهد ، ولم تتردد الحكومة فى إمداده بالإعانة المالية وأسرع « العرش » إلى تشجيعه ، ولم تكد تفتح الجامعة أبوابها للناس فى سنة ١٩٠٨ حتى غصت بالطلاب والمستمعين من كل طبقة ومذهب ، ومن كل سن وجيل ، وقد كان ازدحام الناس شديداً على هذا المعهد حتى اضطر الأساتذه إلى أن يلقوا محاضراتهم مرتين ومرات ليتمكنوا من إسماعها لهذا الجمهور الذى كان يضيق به المكان على سعته ورحبته

كما جاء فى العريضة التى رفعها أعضاء مجلس إدارة الجامعة المصرية إلى «الملك» فؤاد فى ٧ يونيو عام ١٩٢٢ (١).

وطبعت الجامعة الثقافة المصرية بطابعها ووجدنا فكراً خالصاً متحرراً من كل قيد لا يرسف فى الأغلال التى فرضها أرباب التعليم البائد على الفكر فرضاً.

وفى هذا الجو عاش «البشرى»، وألف حوله المعايير تتغير، والقيم تتبدل وتتحول، والعقل البشرى يسير نحو التطور.

فأراد أن يشارك الفكر الحديث فى نموه وإطراده مما ظهر فى كتاباته فى وضوح وجلاء.

وساعدت على انتشار الأفكار الحديثة مدرسة أدباء المهجر فإنه قد نشأت جالية سورية فى أمريكا فى العقد الثامن من القرن الماضى وأخذت فى النمو والاتساع حتى أصبح عددها حوالى نصف مليون، وتكوّنت جمعيات أدبية عربية فى أمريكا مثل (الرابطة القلمية) التى كان يرأسها خليل جبران ومن أعضائها ميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضى ونسيب عريضة ورشيدة أيوب و(العصبة الأندلسية) التى كان من أعضائها ميشيل معلوف ورشيد الخورى وشفيق المعلوف، وامتازت هذه المدرسة، وأعنى بها مدرسة أدباء المهجر، بالقوة والتجديد والثورة على القديم، والتفكير الفلسفى

---

(١) «الأمير» فؤاد ونشأة الجامعة المصرية، لأحمد عبد الفتاح بدير ص ٣١٠.

وطفت على كتابة كثير من الكتاب فى مصر ، مثل المنفلوطى ومى زيادة والرافعى وحسين عفيف ومس «البشرى» منها رشاش، غير أن بعض كبار الكتاب لم يطمئنوا إليها مثل هيكل الذى نشر فى السياسة الأسبوعية [1] مقالا يقول فيه :

« يجب أن يتعاون المجدد والمقلد منا وإلا بقى الفوز فى جانب السوريين المتأمركين واضمحت الثقافة الإسلامية » .

ولكن مجمع اللغة العربية « الملكى» الذى أنشىء فى ٣ ديسمبر عام ١٩٣٢ قام بدور كبير فى حفظ مقومات الثقافة العربية من العناصر الدخيلة وأهم أغراضه : المحافظة على سلامة اللغة العربية وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها، ملائمة على العموم لحاجات الحياة فى العصر الحديث، وأن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية، وأن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة، وأن يبحث فى كل ماله شأن فى تقدم اللغة .

وعمل «البشرى» فى المجمع كما سنفصل فى سيرته فترة طويلة من حياته ليس من شك فى أنها أثرت كل التأثير فى ثقافته واتجاهه الأدبى .

والواقع أن «البشرى» غير غريب على مجمع فؤاد الأول للغة العربية

---

(١) السياسة الأسبوعية عدد ٤٠٢ عام ١٩٣٠ .

كما سمى بذلك فى ٧ أغسطس عام ١٩٣٨ بمرسوم ملكى بعد أن كان اسمه مجمع اللغة العربية الملكى ، فقد كان أبوه الشيخ سليم البشرى رئيساً لمجمع لغوى عام ١٩١٧ مركزه دار الكتب المصرية ووكيله الشيخ محمد بخيت ، وسكرتيره أحمد لطفى السيد بك ، ومساعد السكرتير السيد محمد البلاوى ، وقد عقد هذا المجمع جلسات عدة عن كيفية وضع مجمع لغوى يفى بحاجة العصر الحديث ، ثم نظر فى بعض الكلمات العامة والدخيلة التى رأى إرجاعها إلى أصول عربية. وما أن حلت سنة ١٩١٩ حتى توقفت أعمال المجمع وظلت الفكرة تراود الأذهان مرة أخرى لافتتاح مجمع لغوى أو استئناف نشاط المجمع القديم حتى صدر المرسوم الملكى بإنشاء مجمع اللغة العربية الملكى .

ولا يمكن أن ننكر أثر دار الكتب المصرية فى تكييف البيئة الثقافية فى عهد البشرى ، وقد كان الشيخ سليم البشرى كما قلت رئيساً لمجمع لغوى عام ١٩١٧ مقره هذه الدار ، وقد وجد « البشرى » من ذلك سبباً قوياً يربطه بهذه الدار التى كان يرتادها بين الحين والحين يتثقف ببعض ما فيها من كتب ويطلع على بعض مافيها من أسفار .

ويرجع الفضل فى تأسيس هذه الدار رسمياً إلى جهود المرحوم على مبارك ، فإنه لما رأى أكثر المخطوطات النفيسة التى حبسها المؤلفون والعلماء ، ووقفها السلاطين المماليك والأمراء وأهل البر على المدارس

والجوامع والأضرحة وغيرها من المساهد يتسرب إلى الديار الأوربية والبلاد الأمريكية عرض على سمو الخديوى اسماعيل جمع الكتب التى بقيت ، فوافق سموه وأصدر إرادته السنية إليه فى ٢٠ ذى الحجة عام ١٢٨٦ (٢٣ مارس ١٨٧٠) لتأسيس الكتبخانة الخديوية المصرية .

وكان هذا الجمع بدء تأسيس دار الكتب وبلغت عدة ما جمع من الكتب يومئذ نحو العشرين ألف مجلد، وجعل مقرها بالطابق الأرضى تجاه السلاملك بسراى المرحوم مصطفى فاضل «باشا» بدرب الجامين بجوار المدارس . وفى ١٩ أبريل عام ١٩٤٠ صدر أمر عال رقم ٨ بإصلاح دار الكتب الخديوية وتنظيم شئونها من الوجهة المالية والوجهة الإدارية جميعاً . فعهد بالأولى إلى وزارة المالية ، والثانية إلى مجلس أعلى ينعقد برياسة وزير المعارف ، وبدأ المجلس الأعلى جلساته فى ٣٠ أكتوبر عام ١٩١١ وبناء على المنصوص فى اللائحة أصبح من حق المجلس الأعلى الإشراف على مشروع إحياء الكتب العربية مثل كتاب «صبح الأعشى للقلقشندى» وطبع فى أربعة أجزاء فى مطبعة بولاق وكتاب « الأحكام فى أصول الأحكام للآمدى » وطبع فى أربعة أجزاء بمطبعة المعارف وكتاب « الطراز المتضمن لأسرار البلاغة » وطبع فى ثلاثة أجزاء بمطبعة المقتطف وكتاب « الاعتصام للشاطبى » وطبع فى ثلاثة أجزاء بمطبعة المنار وكتاب « الخصائص فى اللغة لابن جنى » وطبع فى مطبعة الهلال .

وقد قدمت دار الكتب بعد ذلك خدمات عظيمة للعلم بطبع كتاب « الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى » وكتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب النويرى » وغيرهما من الكتب القيمة .

وبلغ من اهتمام « عبد العزيز البشرى » بهذه الدار أن طلب إليه عام ١٩٢٧ ، وكان وقتذاك سكرتيراً برلمانياً لوزير المعارف ، أن ينتج كتاباً صغيراً عن دار الكتب فقبل ذلك الطلب عن طيب خاطر ، ونتج هذا الكتاب المسمى (دليـــل موجز لزائرى دار الكتب المصرية) لمؤلفه توفيق إسكاروس الموظف أو المنير بدار الكتب المصرية ، كما نتج كتاباً آخر فى الطباعة ألفه الأستاذ محمد زكى خليل الموظف وقتذاك بالمطبعة الأميرية ومدير مطبعة جامعة القاهرة حاليا .

وإن المتتبع لتاريخ الثقافة فى العصر الحديث يلاحظ أن إنشاء الإذاعة المصرية قام بدور خطير فى هذا المضمار ونقل الثقافة الغربية إلى مصر وألغى الزمان والمكان إلغاء . وقبل أن تؤسس محطة الإذاعة الحكومية فى ٣١ مايو ١٩٣٤ كانت هناك محطات أهلية مثل محطة (الأمير فاروق) ومحطة (راديو فيولا) ومحطة (راديو القاهرة) ومحطة (راديو وادى الملوك) ومحطات أخرى أكملت العدد إلى إحدى عشر محطة . ولكن صاحب كل محطة تلقى فى ١٥ مايو عام ١٩٣٤ خطاباً تعلنه فيه الحكومة بأن يكف عن الإذاعة ابتداء من أول مايو .

وأدت هذه المحطات الأهلية، كما أدت المحطة الحكومية، للثقافة خدمة جليلة زادت على الأيام نماء وقوة . وقد كان «البشرى» من رواد الإذاعة فى محطاتها الأهلية ومحطتها الحكومية ، ووجد فيها مجالا ينشر منها نشاطه ويذيع فيها أدبه .

وتألف فى عهد «البشرى» كثير من الجمعيات الثقافية والأدبية التى كانت تدعوه إلى إلقاء محاضرات أو أبحاث بين رحابها فساعدت هذه البيئة الثقافية على ذيوع أدبه وانتشار فضله فى البلاد .

وإذا ألقينا نظرة إلى الصحافة فى القرن العشرين وجدناها تزدهر مع الأيام ، ويكثر عدد الصحف والمجلات، وتصبح معرضاً لآراء المصريين ومطالبهم الوطنية وأهدافهم القومية، حقا لقد كانت الصحف تكبت حريتها فى بعض الفترات أو تصادر أو تصاب بالإغلاق والتعطيل ، ولكنها كانت رغم هذا كله ترجماناً صادقاً لآمال الشعب وأهدافه الوطنية .

وكذلك نمت الصحافة الأدبية إلى جانب الصحافة السياسية وارتفع شأن الهلال والمقتطف ووجدنا «البشرى» يدبج مقالاته وخواطره فيهما بين الحين والحين ، وتألفت لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩١٤ وأصدرت مجلة الثقافة عام ١٩٣٩ فوجد «البشرى» فيها مجالا لنشر مقالاته. كما وجد فى الرسالة من قبلها ، وفى السياسة الأسبوعية وغيرها من المجلات والصحف كجريدة الأهرام والمصرى هذا المجال .

وجملة القول أن انتشار الصحف والمجلات ونهضة الصحافة وعلو كعب البيئة الثقافية فى عهد «البشرى» قد أثر فى عقليته وتفكيره واتجاهه الفكرى وإنتاجه الأدبى، وليس هذا بغريب فالإنسان ابن البيئة .

وعندما نلق النظر إلى الأساليب والمؤلفات والتراجم التى ظهرت فى عهد «البشرى» نعرف مدى النهضة الفكرية فى هذا العهد، وتأثر «البشرى» بالبيئة الثقافية حوله، كما نعرف مدى تأخر بعض الأساليب الأخرى ونفور «البشرى» منها .

والواقع أن النثر العربى ظل طيلة القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين يجرى على أسلوب الجبرتى فى الكتابة الأدبية، أما فى الكتابة الصحفية فقد وجد تحررا من هذا الأسلوب عند أديب إسحاق ومحمد عبده وعبد الله نديم وجمال الدين الأفغانى وأضرابهم.

وكان أسلوب الجبرتى ينحصر فى سجع محفوظ الفواصل والقوافى، يتردد على كل قلم، ويزج فى كل موضوع، ثم ارتقى إلى سجع يتكرر كثيراً أو قليلا من ألفاظه وقوافيه، كالسجع الذى نقرأه فى كتاب عيسى بن هشام للمويلحى الصغير، ثم انطلق فى أسلوب منسق معتدل لا تلتزم فيه الاسجاع والقوالب، كالأسلوب الذى يختاره المويلحى او المنفلوطى فى النثر المرسل، ثم تعددت الأساليب واختلفت باختلاف

الأفراد والموضوعات(١) كما يقول الأستاذ عباس العقاد .

ولعل هذا التحرر الذى طبع الأسلوب جاء نتيجة لظروف الحياة فى تلك الفترة، فقد أرادت ظروف الحياة أن يهاجر السوريون إلى مصر وأن تصبح مصر مستقر الحياة العقلية فى الشرق كله . وكان السوريون أول من ثاروا على القديم ، والأسلوب المعتمد على السجع والاستعارة وألوان البديع والبيان، وكذلك فعل الصحفيون المصريون مثل سعد زغلول ومحمد عبده وعبد الكريم سلمان .

ومن هنا نستطيع أن نلاحظ أن النتيجة القيمة التى جاء بها القرن الماضى فى النثر العربى إنما هى إطلاق النثر من هذه القيود البديعية والبيانية (٢) .

والواقع أن «البشرى» لم يستطع الخلاص كل الخلاص من آثار هذه المدرسة القديمة، ولكنه لم يخضع لها خضوعاً ولم يستسلم إليها استسلاماً إنما حاول أن يتكيف بالجو الجديد ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وهنا ينبغى أن نسجل حقيقة واقعة وهى أن « البشرى » لم يجر على تقليد التقليد فى الأسلوب، إنما كان يرجع إلى الأسلوب العربى فى مظانه الأولى . كان يرجع إلى الجاحظ وابن المقفع وابن العميد وأضرابهم، ويحاول أن ينسج على منوال بعضهم فى الكتابة . وشتان

---

(١) الهلال ص ٦٥٢ عام ١٩٣٧

(٢) المقتطف ص ٢٦٢ عام ١٩٢٦

بين نثر البشرى وبين نثر السيد توفيق البكرى، فاقرأ مثلا قول البكرى فى وصف الليل فى صهاريج اللؤلؤ :

« حتى إذا أقبل الليل وأرخى الذيل، بدا الهلال كأنه خنجر من ضياء يشق الظلماء، أو قلادة أو سوار غادة، أو سوار لواه الضراب أو الليل فيل وهو ناب ... ثم إذا غاب الهلال وتوارى فى الحجال ألفيت الكون فى السواد فى لبوس حداد وكأنما الماء سماء، وكأنما السماء ماء، وكأنما النجوم در يموج فى بحر أو ثقوب فى قبة الديجور يلوح منها النور... » .

ثم اقرأ ما كتبه « البشرى » فى « عبرة العبر » عن طلوع النهار وهبوط الليل وإشراق الشمس وأفولها ، مستخلصاً من ذلك العبر الفلسفية التى يحاول أن يقوم بها العباد :

« وهذه الشمس تمشى إلى الغرب فى منحدرها كذلك رويداً رويداً كما تتداخلها الشيخوخة، فالهرم رويداً رويداً حتى إذا كان اصفر لونها وبردت السن من جرمها ، جعلت تتدلى فى قبرها من مغرب الأفق مستمهلة متأنية ، وهكذا تغيب فى لحدها غير تاركة من التراث إلا صبابة من الذهب المذاب سرعان ما تتبخر فى حلك الظلام وقد تترك تراثها الفضى على صفحة القمر يرفد العلم به بعض ليالى الشهر. تلك سيرة الشمس كل يوم ، ميلاد فترعرع ففتوة ... فشباب وفراهة وقوة وكهولة، فشيخوخة فهرم ، فتدس فى النهاية تحت الرجم وسبحان الحى الذى لايموت .. !! » (١)

---

(١) قطوف ج ٢ ص ١٩ .

فالبشرى إذن لم يسلك مسلك الأقدمين فى الزخرفة اللفظية وازدحام الصور البيانية، إنما أعطانا صورة جميلة رائعة كلها حكمة وفلسفة وإرشاد للعباد فى أسلوب سلس جميل .

وتأثر « البشرى » ببعض التيارات الجديدة فى الأدب الحديث كتيار التأليف والترجمة ، والمعروف أن الثورة العرابية أزكت هذه الحركة بنوع خاص فى الشعر والكتابة والسياسة. فكان البارودى ومحمد عبده وسعد زغلول وعبد الله نديم ، وظهرت عدة مؤلفات أدبية وقومية واستأنفت الحركة الفكرية سيرها ،وظهر زعماء كبار مثل على مبارك ،وتوفيق البكرى ، والمويلحى، وعلى يوسف ، وحفنى ناصف ممن جنحت كتبهم إلى القديم وروعته ، ثم تفتحت النهضة وهبت عليها روح جديدة، وظهرت جماعة تأثرت بالروح الغربية مثل قاسم أمين ،وعمر لطفى ، واسماعيل صبرى ،ولطفى السيد ، ممن يطلق عليهم المدرسة الحديثة . فلما نشبت الحرب العالمية الأولى شلت الحركة الأدبية وشغلت الناس عن الحياة الأدبية والعلمية بالسياسة ، ولكن السياسة تركت فى الأدب آثاراً لا تمحى، واستحدثت حياة أدبية جديدة، وكانت الخصومة الحزبية سبباً فى قرع الحجج والبراهين بين كتاب الصحف . وكانت الصحف أدوات صالحة لهذا التنافس وأخذت تنشر الفصول الطوال مقلدة لصحف أوربا وأمريكا، وساعد رقى الطباعة على نشر الكتب ورفع قيمتها الفنية ، وذيلت الكتب بفهارس أبجدية ،وقسمت الموضوعات إلى أبواب وفصول. وتنوعت

أشكال الحروف ، وفصل بين العبارات بأدوات الترقيم المختلفة، وتجنب المؤلفون الحشو والتنميق والألفاظ المهجورة .

هذا من ناحية التأليف. أما من ناحية الترجمة ، فلقد ظهرت في العصر الحديث محاولات كثيرة للترجمة، منها ترجمة الالياذة، وترجمها الشاعر المعروف سليمان البستاني، واهتم بالترجمة عن اللغة الفرنسية محمد عثمان جلال المتوفى سنة ١٨٩٨ ومحمد مسعود ومارون نقاش وأحمد حسن الزيات وشكيب أرسلان وطه حسين وغيرهم ، واهتم بالترجمة عن الإنجليزية محمد السباعي ونجيب حداد وخليل مطران ومحمد عوض إبراهيم وغيرهم، وعن الألمانية محمد عوض محمد وسليم سعاسة وجولد علي وإبراهيم ناجي وغيرهم .

وليس من شك في أن الترجمة عن هذه اللغات الأجنبية قد اثرت كل التأثير في البيئة الأدبية التي عاش فيها « البشري » ، وفتحت آفاقاً واسعة أمام الكتاب والمفكرين، وفتحت مجالات رحيبة للتقليد والتجديد . إلى جانب الاطلاع المباشر على ما نشر في لغات الغرب من شتى العلوم والآداب (١) .

وليس من شك كذلك في أن البشري استفاد من هذا كله وتأثر بهذا كله حتى أصبح كاتباً لامعاً ، وحتى وجدنا أحد الأساتذة المستشرقين وهو المستر (هيوارث ديون) Heyworth Dunne

(١) الاتجاه الفني ، العالم العربي الحديث ص ١٤١

أحد محاضرى الأدب العربى فى جامعة لندن بين عامى ١٩٢٨ ، ١٩٤٨ يقول عنه فى مجلة الشرق الأوسط التى تصدر عن معهد الشرق الأوسط فى وشنطون :

«ومن الأدباء الممتازين فى العصور الحديثة المرحوم «عبد العزيز البشرى» نجل سليم البشرى من شيوخ الجامع الأزهر ، وكتابه (المختار) يضم بين دفتيه صوراً كثيرة للحياة المصرية . . .» !!(١)

(١) راجع المقتطف ص ٣٠١ نوفمبر سنة ١٩٤٩ .